سلسلة رسائل في :

التحذير من أسباب الهزيمة

بقلم :

أبو عبد الله المقدسي

الناشر:

الغرباء للإعلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1435 هـ 2014 م

الغرباء للإعلام

سلسلة رسائل في التحذير من أسباب الهزيمة (١)

الرسالة الأولى

(وقفة وعبرة مع يوم حنين وغزوة إسكان)

كتبه

أبو عبد اللّه المقدسي

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الثقلين؛ محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه رسالة من سلسلة رسائل؛ أكتبها إلى آساد التوحيد، حماة العقيدة وأنصارهم.

ضمن سلسلة؛ نذكرها من أسباب الهزيمة في المعارك الفاصلة، بين عساكر التوحيد وعساكر الشرك.

وأول رسالة في هذه السلسلة؛ هي رسالة في التحذير من العجب والاغترار بالقوة والكثرة، فهو أحد أهم أسباب الهزائم.

وإني أكتبها على عجلة من أمري؛ لِمَا لها مِن أهمية في هذا الوقت الذي يسطر فيه أجناد الخلافة أروع البطولات والملاحم، فنكتبها لهم؛ ليتذكروا نعمة الله عليهم، ويكون اعتمادهم عليه وحده.

نكتبها لإخواننا؛ نحذرهم من مغبة أمور وقع فيها بعض صحابة رسول الله ﷺ، وذكر الله قصتهم في كتابه الكريم؛ ليذكر مَن بعدهم، وليعتبر أولو الأبصار.

نعيد ذكرها هنا، مع ذكر قصة مشابهة لها، حصلت مع جنود جبهة النصرة في أوج انتصاراتها على أزلام النظام النصيري؛ عسى أن تصل إلى إخواننا من أجناد دولة الخلافة، فيعتبروا بمن سبقهم، والكيّس العاقل مَن اتعظ بغيره.

كتبها خادم إخوانه المجاهدين:

أبو عبد الله المقدسي

في يوم حنين؛ قصة وعبرة

قال الله تعالى في محكم التنزيل:

﴿ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)﴾ (سورة التوبة).

قال القرطبي في تفسيره عن سبب نزول الآيات:

قَوْلُهُ تَعَالَى: (**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ**..الآية)

لَمَّا بَلَغَ هَوَازِنَ فَتْحُ مَكَّةَ جَمَعَهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِيُّ مِنْ بَنِي نَصْرِ بْنِ مَالِكٍ ، وَكَانَتِ الرِّيَاسَةُ فِي جَمِيعِ الْعَسْكَرِ إِلَيْهِ ، وَسَاقَ مَعَ الْكُفَّارِ أَمْوَالَهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ ، وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ يَحْمِي بِهِ نُفُوسَهُمْ وَتَشْتَدُّ فِي الْقِتَالِ عِنْدَ ذَلِكَ شَوْكَتُهُمْ.

وَكَانُوا ثَمَانِيَةَ آلَافٍ فِي قَوْلِ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ .

وَقِيلَ : أَرْبَعَةُ آلَافٍ ، مِنْ هَوَازِنَ وَثَقِيفٍ .

وَعَلَى هَوَازِنَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ ، وَعَلَى ثَقِيفٍ كِنَانَةُ بْنُ عَبْدٍ ، فَنَزَلُوا بِأَوْطَاسَ . وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي حَدْرَدٍ الْأَسْلَمِيَّ عَيْنًا ، فَأَتَاهُ وَأَخْبَرَهُ بِمَا شَاهَدَ مِنْهُمْ ، فَعَزَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَصْدِهِمْ ، وَاسْتَعَارَ مِنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ الْجُمَحِيِّ دُرُوعًا .

قِيلَ : مِائَةُ دِرْعٍ .

وَقِيلَ : أَرْبَعُمِائَةِ دِرْعٍ .

وَاسْتَسْلَفَ مِنْ رَبِيعَةَ الْمَخْزُومِيِّ ثَلَاثِينَ أَلْفًا أَوْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا ، فَلَمَّا قَدِمَ قَضَاهُ إِيَّاهَا .

ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : " **بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الْوَفَاءُ وَالْحَمْدُ** " [خَرَّجَهُ ابْنُ مَاجَهْ فِي السُّنَنِ]

. وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْهُمْ عَشَرَةُ آلَافٍ صَحِبُوهُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَلْفَانِ مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ وَهُمُ الطُّلَقَاءُ إِلَى مَنِ انْضَافَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَعْرَابِ مِنْ سُلَيْمٍ وَبَنِي كِلَابٍ وَعَبْسٍ وَذُبْيَانَ.

وَاسْتَعْمَلَ عَلَى مَكَّةَ عَتَّابَ بْنَ أُسَيْدٍ .

وَفِي مَخْرَجِهِ هَذَا رَأَى جُهَّالُ الْأَعْرَابِ شَجَرَةً خَضْرَاءَ ، وَكَانَ لَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ شَجَرَةٌ مَعْرُوفَةٌ تُسَمَّى ذَاتَ أَنْوَاطٍ ، يَخْرُجُ إِلَيْهَا الْكُفَّارُ يَوْمًا مَعْلُومًا فِي السَّنَةِ يُعَظِّمُونَهَا ، فَقَالُوا :يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : **" اللَّهُ أَكْبَرُ قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّى أَنَّهُمْ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ"**

فَنَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى وَادِي حُنَيْنٍ ، وَهُوَ مِنْ أَوْدِيَةِ تِهَامَةَ ، وَكَانَتْ هَوَازِنُ قَدْ كَمَنَتْ فِي جَنْبَتَيِ الْوَادِي وَذَلِكَ فِي غَبَشِ الصُّبْحِ فَحَمَلَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَانْهَزَمَ جُمْهُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَلْوِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَثَبَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَثَبَتَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، وَمِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ عَلِيٌّ وَالْعَبَّاسُ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَابْنُهُ جَعْفَرُ ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، وَأَيْمَنُ بْنُ عُبَيْدٍ وَهُوَ أَيْمَنُ بْنُ أُمِّ أَيْمَنَ قُتِلَ يَوْمَئِذٍ بِحُنَيْنٍ – وَرَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَالْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ ، وَقِيلَ فِي مَوْضِعِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ : قُثَمُ بْنُ الْعَبَّاسِ . فَهَؤُلَاءِ عَشَرَةُ رِجَالٍ ، وَلِهَذَا قَالَ الْعَبَّاسُ:

نَصَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْحَرْبِ تِسْعَةً ... وَقَدْ فَرَّ مَنْ قَدْ فَرَّ عَنْهُ وَأَقْشَعُوا
وَعَاشِرُنَا لَاقَى الْحِمَامَ بِنَفْسِهِ ... بِمَا مَسَّهُ فِي اللَّهِ لَا يَتَوَجَّعُ

وَثَبَتَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ فِي جُمْلَةِ مَنْ ثَبَتَ مُحْتَزِمَةً مُمْسِكَةً بَعِيرًا لِأَبِي طَلْحَةَ وَفِي يَدِهَا خِنْجَرٌ .

وَلَمْ يَنْهَزِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَا أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الشَّهْبَاءِ وَاسْمُهَا دُلْدُلُ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ عَبَّاسٌ :وَأَنَا آخُذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَلَّا تُسْرِعَ وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "**أَيْ عَبَّاسُ : نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ** ".

فَقَالَ عَبَّاسٌ – وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا .

وَيُرْوَى مِنْ شِدَّةِ صَوْتِهِ أَنَّهُ أُغِيرَ يَوْمًا عَلَى مَكَّةَ فَنَادَى وَاصَبَاحَاهُ ؛ فَأَسْقَطَتْ كُلُّ حَامِلٍ سَمِعَتْ صَوْتَهُ جَنِينَهَا – : فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي : أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ ؟ قَالَ : فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا .

فَقَالُوا : يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ . قَالَ : فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارُ . . . الْحَدِيثَ .

وَفِيهِ : قَالَ ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ .

ثُمَّ قَالَ : انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ .

قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى .

قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ ، فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا .

قَالَ أَبُو عُمَرَ : رَوَيْنَا مِنْ وُجُوهٍ عَنْ بَعْضِ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ شَهِدَ حُنَيْنًا أَنَّهُ قَالَ – وَقَدْ سُئِلَ عَنْ يَوْمِ حُنَيْنٍ – : لَقِينَا الْمُسْلِمِينَ فَمَا لَبِثْنَا أَنْ هَزَمْنَاهُمْ وَأَتْبَعْنَاهُمْ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَجُلٍ رَاكِبٍ عَلَى بَغْلَةٍ بَيْضَاءَ ، فَلَمَّا رَآنَا زَجَرَنَا زَجْرَةً وَانْتَهَرَنَا ، وَأَخَذَ بِكَفِّهِ حَصًى وَتُرَابًا فَرَمَى بِهِ وَقَالَ : شَاهَتِ الْوُجُوهُ فَلَمْ تَبْقَ عَيْنٌ إِلَّا دَخَلَهَا مِنْ ذَلِكَ ، وَمَا مَلَكْنَا أَنْفُسَنَا أَنْ رَجَعْنَا عَلَى أَعْقَابِنَا .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : حَدَّثَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ : لَمَّا الْتَقَيْنَا مَعَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَقِفُوا لَنَا حَلْبَ شَاةٍ ، حَتَّى إِذَا انْتَهَيْنَا إِلَى صَاحِبِ الْبَغْلَةِ الشَّهْبَاءِ – يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ – تَلَقَّانَا رِجَالٌ بِيضُ الْوُجُوهِ حِسَانٌ ، فَقَالُوا لَنَا : شَاهَتِ الْوُجُوهُ ، ارْجِعُوا ، فَرَجَعْنَا وَرَكِبُوا أَكْتَافَنَا فَكَانَتْ إِيَّاهَا . يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ.

ثم قال : قَوْلُهُ تَعَالَى: (**إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ**) قِيلَ : كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا

وَقِيلَ : أَحَدَ عَشَرَ أَلْفًا وَخَمْسُمِائَةٍ .

وَقِيلَ : سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفًا .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ عَنْ قِلَّةٍ . فَوُكِلُوا إِلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، فَكَانَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْهَزِيمَةِ فِي الِابْتِدَاءِ إِلَى أَنْ تَرَاجَعُوا ، فَكَانَ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ لِلْمُسْلِمِينَ بِبَرَكَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ .

فَبَيَّنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْغَلَبَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِنَصْرِ اللَّهِ لَا بِالْكَثْرَةِ وَقَدْ قَالَ : (وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ). انتهى كلامه رحمه الله (تفسير القرطبي سورة التوبة).

قال ابن كثير: يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم؛ في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعددهم ولا بعددهم، ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئًا، فولّوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ، ثم أنزل [الله] نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلاً؛ ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين. (تفسير ابن كثير سورة التوبة).

قال الطبري ﷺ تفسيره: عن السدي: **(لقد نصركم الله في مواطن كثيرة)**، الآية: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين قال: يا رسول الله؛ لن نغلب اليوم من قلة! وأعجبته كثرة الناس، وكانوا اثني عشر ألفًا، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوكلوا إلى كلمة الرجل، فانهزموا عن رسول الله، غير العباس، وأبي سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، قتل يومئذ بين يديه (تفسير الطبري سورة التوبة ص ١٨٢).

وقد ذكر ابن عاشور قولاً رائعًا في تفسيره لآيات حنين؛ قال:

لَمَّا تَضَمَّنَتِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ الْحَثَّ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ ابْتِدَاءً مِنْ قَوْلِهِ – تَعَالَى : (**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**) ، وَكَانَ التَّمْهِيدُ لِلْإِقْدَامِ عَلَى ذَلِكَ مُدَرَّجًا بِإِبْطَالِ حُرْمَةِ عَهْدِهِمْ ، لِشِرْكِهِمْ ، وَبِإِظْهَارِ أَنَّهُمْ مُضْمِرُونَ الْعَزْمَ عَلَى الِابْتِدَاءِ بِنَقْضِ الْعُهُودِ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لَوْ قُدِّرَ لَهُمُ النَّصْرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَآيَةُ ذَلِكَ : اعْتِدَاؤُهُمْ عَلَى خُزَاعَةَ أَحْلَافِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَمُّهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – مِنْ مَكَّةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، حَتَّى إِذَا انْتَهَى ذَلِكَ التَّمْهِيدُ الْمُدَرَّجُ إِلَى الْحَثِّ عَلَى قِتَالِهِمْ وَضَمَانِ نَصْرِ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ ، وَمَا اتَّصَلَ بِذَلِكَ مِمَّا يُثِيرُ حَمَاسَةَ الْمُسْلِمِينَ جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِشَوَاهِدِ مَا سَبَقَ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَتَذْكِيرٍ بِمُقَارَنَةِ التَّأْيِيدِ الْإِلَهِيِّ لِحَالَةِ الِامْتِثَالِ لِأَوَامِرِهِ ، وَأَنَّ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ شَوَاهِدَ تَشْهَدُ لِلْحَالَيْنِ . فَالْكَلَامُ اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ لِمُنَاسَبَةِ الْغَرَضِ السَّابِقِ.

وَأُسْنِدَ النَّصْرُ إِلَى اللَّهِ بِالصَّرَاحَةِ لِإِظْهَارِ أَنَّ إِيثَارَ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ يُفِيتُ بَعْضَ حُظُوظِ الدُّنْيَا ، فَفِيهِ حَظُّ الْآخِرَةِ وَفِيهِ حُظُوظٌ أُخْرَى مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ حُظُوظُ النَّصْرِ بِمَا فِيهِ : مِنْ تَأْيِيدِ الْجَامِعَةِ ، وَمِنَ الْمَغَانِمِ ، وَحِمَايَةِ الْأُمَّةِ مِن اعْتِدَاءِ أَعْدَائِهَا ، وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ إِذْ آثَرُوا مَحَبَّتَهُ عَلَى مَحَبَّةِ عَلَائِقِهِم الدُّنْيَوِيَّةِ.

وَأَكَّدَ الْكَلَامَ بِـ قَدْ لِتَحْقِيقِ هَذَا النَّصْرِ لِأَنَّ الْقَوْمَ كَأَنَّهُمْ نَسُوهُ أَوْ شَكُّوا فِيهِ فَنَزَلُوا مَنْزِلَةَ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى تَأْكِيدِ الْخَبَرِ.

وَمَوَاطِنَ: جَمْعُ مَوْطِنٍ ، وَالْمَوْطِنُ أَصْلُهُ مَكَانُ التَّوَطُّنِ ، أَيِ الْإِقَامَةِ .وَيُطْلَقُ عَلَى مَقَامِ الْحَرْبِ وَمَوْقِفِهَا ، أَيْ نَصَرَكُمْ فِي مَوَاقِعِ حُرُوبٍ كَثِيرَةٍ.

وَ " **يَوْمَ** " مَعْطُوفٌ عَلَى الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ مِنْ قَوْلِهِ : فِي مَوَاطِنَ فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمَا تَعَلَّقَ بِهِ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ وَهُوَ نَصَرَكُمْ وَالتَّقْدِيرُ : وَنَصَرَكُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَوَاطِنِ ؛ لِأَنَّ مَوَاطِنَ الْحَرْبِ تَقْتَضِي أَيَّامًا تَقَعُ فِيهَا الْحَرْبُ ، فَتَدُلُّ الْمَوَاطِنُ عَلَى الْأَيَّامِ كَمَا تَدُلُّ الْأَيَّامُ عَلَى الْمَوَاطِنِ ، فَلَمَّا أُضِيفَ الْيَوْمُ إِلَى اسْمِ مَكَانٍ عُلِمَ أَنَّهُ مَوْطِنٌ مِنْ مَوَاطِنِ النَّصْرِ وَلِذَلِكَ عُطِفَ بِالْوَاوِ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يُعْطَفْ لَتُوُهِّمَ أَنَّ الْمَوَاطِنَ كُلَّهَا فِي يَوْمِ حُنَيْنٍ ، وَلَيْسَ هَذَا الْمُرَادَ .

وَلِهَذَا فَالتَّقْدِيرُ : فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَأَيَّامَ كَثِيرَةٍ مِنْهَا مَوْطِنُ حُنَيْنٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ.

وَتَخْصِيصُ يَوْمِ حُنَيْنٍ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ أَيَّامِ الْحُرُوبِ : لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ انْهَزَمُوا فِي أَثْنَاءِ النَّصْرِ ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِمُ النَّصْرُ ، فَتَخْصِيصُهُ بِالذِّكْرِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْعِبْرَةِ بِحُصُولِ النَّصْرِ عِنْدَ امْتِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – وَحُصُولِ الْهَزِيمَةِ عِنْدَ إِيثَارِ الْحُظُوظِ الْعَاجِلَةِ عَلَى الِامْتِثَالِ ، فَفِيهِ مَثَلٌ وَشَاهِدٌ لِحَالَتَي الْإِيثَارَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ آنِفًا فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى : أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ لِيَتَنَبَّهُوا إِلَى أَنَّ هَذَا الْإِيثَارَ قَدْ يَعْرِضُ فِي أَثْنَاءِ إِيثَارٍ آخَرَ ، فَهُمْ لَمَّا خَرَجُوا إِلَى غَزْوَةِ حُنَيْنٍ كَانُوا قَدْ آثَرُوا مَحَبَّةَ الْجِهَادِ عَلَى مَحَبَّةِ أَسْبَابِهِمْ وَعَلَاقَاتِهِمْ ، ثُمَّ هُمْ فِي أَثْنَاءِ الْجِهَادِ قَدْ عَاوَدَهُمْ إِيثَارُ الْحُظُوظِ الْعَاجِلَةِ عَلَى امْتِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ الَّذِي هُوَ مِنْ آثَارِ إِيثَارِ مَحَبَّتِهَا ، وَهِيَ عِبْرَةٌ دَقِيقَةٌ حَصَلَ فِيهَا الضِّدَّانِ وَلِذَلِكَ كَانَ مَوْقِعُ قَوْلِهِ : إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ بَدِيعًا لِأَنَّهُ تَنْبِيهٌ عَلَى خَطَئِهِمْ فِي الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ الْمُنَاسِبِ لِمَقَامِهِمْ أَيْ : مَا كَانَ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَعْتَمِدُوا عَلَى كَثْرَتِكُمْ . [راجع تفسير التحرير والتنوير الجزء: ١١ ص: ١٥٦].

قلت: فإن من اطلع على أقوال العلماء في تفسير آيات غزوة حنين؛ علم علم اليقين أن سبب انهزام المسلمين أمام عدوهم بادئ الأمر كان باعتدادهم بعددهم وقوتهم وتوكل بعضهم عليها، ومَن أمعن النظر في السيرة: وجد أن مِن أهم أسباب هزيمة المسلمين عجبهم بعدتهم وعتادهم، فيوكلهم الله عز وجل إلى أنفسهم فيبوؤوا بالهزيمة والخسران، ولنا في بلاط الشهداء عبرة؛ إذ كان من أسباب توقف التمدد الإسلامي إلى قارة أوروبا: هو عجب المسلمين بعددهم في تلك المعركة؛ إذ كانوا قرابة الخمسين ألف مقاتل، فلم تُغْنِ عنهم فئتهم مِن الله.

ولنا في غزوة الإسكان العسكري بإدلب عبرة؛

فهذه قصة الغزوة من رواية أحد المجاهدين، الذين شاركوا فيها الأخ أبو البراء المقدسي؛ يقول:

بعد أن فتح الله على المجاهدين في جبهة النصرة - قبل انشقاقها عن الدولة الإسلامية – مطار تفتناز العسكري، وأيدهم بنصره في عديد من المعارك بأرض الشام، وتكبّد جند الطاغوت النصيري على أيديهم أمر العذاب، وغنموا من معداته الثقيلة وعتاده؛ قرر ليوث التوحيد أن يدكوا أحد أهم مقراته في مدينة إدلب، والذي أذاق المسلمين صنوف العذاب والويلات، **وذلك في يوم الأربعاء ١٨ من ربيع الأول ١٤٣٤هـ، الموافق ٣٠/ ١/ 2013م،**



جبهة النصرة/ شرح خطة اقتحام الإسكان العسكري للمجاهدين

وقبيل الغزوة بأيام: راح كل قائد يختار جنوده الذين سيشاركون معه في هذه الغزوة.

فمنهم من يختار ثلة من القناصين؛ ليتمركزوا بعيدًا عن الإسكان، وآخر ينتخي مجموعة ممن له إلمام بمدفع الهاون.

وانتخب عشرة مجاهدين؛ ليكونوا فيمن ينغمس وسط النصيرية، ومنهم: أبو عبد الله التركي الطيار، وأبو عبد الرحمن التونسي، وأبو جعفر التونسي، وأبو البراء الإدلبي، وأبو البراء المقدسي، وثلة من الموحدين؛ منهم مَن قضى نحبه، ومنهم مَن ينتظر.

وقبل طلوع الفجر؛ انطلق المجاهدون إلى هدفهم، راجين مِن الله العون والتوفيق، وبينما هم يسيرون متوجهين إلى الإسكان العسكري؛ إذ بثلة ممن انضم حديثًا للجبهة يتضاحكون بصوت عال، ويقول أحدهم: إننا مع أول طلقة سنطلقها سيستسلم جنود الإسكان أو يولوا مدبرين.

وآخر يقول: لا أظن أننا سنحتاج لاستعمال السلاح؛ فلو دخلنا عليهم بأيدينا لَهُزِموا، فهم أقل منا وأضعف.

قالوا ذلك مغترين بما فتح الله به على المجاهدين في الغزوات السابقة، ظانّين أنهم أحرزوا النصر ببأسهم وعددهم،

فَوُكِلوا إلى أنفسهم، وانهزم المجاهدون في هذه المعركة، بعد أن رأوا النصر بأم أعينهم.

واستمر المجاهدون في مسيرهم، ومع صيحات أبي العباس الليبي وتكبيره؛ بدأ دك الإسكن بقذائف الهاون ومدافع الدبابات.



جبهة النصرة/ قصف الإسكان العسكري بقذائف الهاون


جبهة النصرة/ دبابة جبهة النصرة تسقي المرتدين حمم نيرانها

واستطاع المجاهدون فتح ثغرة في جدار الإسكان، ودخلوا منها؛ ليلقوا مَن يجدونه في طريقهم صريعًا مضرجًا بدمائه.

فيما دخلت مجموعة أخرى من البوابة الرئيسية، بعد أن تمكنت المدفعية مِن تدميرها بفضل الله وحده.

وصال الأُسْدُ وجالوا داخل الإسكان، وقتلوا قرابة الستين من جنود النظام النصيري وأعوانه، وحرروا معظم الأبنية في الإسكان إلا مبنى كان يتحصن فيه مجموعة من رماة البي كي سي،، وبينما المجاهدون يمشطون المباني؛ إذ تقدم أبو عبد الله التركي تقبله الله لأحد الأبواب في بناية كان مغلقًا، وفتحه بعد أن ربّه بقدمه، وإذ به لغم أصاب أبا عبد الله التركي وآخر معه، واستمر أخونا في قتاله حتى ارتقى في المعركة، وبينما المجاهدون كذلك: إذ تمكن أبو البراء المقدسي من قتل اثنين من المتسترين بالبناية الأخيرة في الإسكان، وظل واحد مختبئًا، وما أن سمع صوت المجنزرات تحركت من الحاجز الخلفي للإسكان، حتى التف على المجاهدين من خلفهم، وأمطرهم بوابل من طلقات البي كي سي الذي كان بحوزته، فارتقى أبو عبدالرحمن التونسي تقبله الله، وفاضت روحه إلى بارئها، وأصيب أبو البراء المقدسي ومعه أبو البراء البنشي، ونجا ثالث كان معهم، وانسحب ليبلغ الإخوة بإصابة معظم المقتحمين للإسكان، ومع مرور الوقت تربص أبو البراء البنشي بالجندي الذي أصابه، ثم بادله طلقات أصابت طلقته رأس النصيري، فيما أصيب هو في صدره، وبدأ ينزف ثم أغمي عليه، ليبقى المقدسي بجانبه؛ إذ كانت إصابته في قدمه، ولا يستطيع الحركة عليها.

وعلى الجانب الآخر؛ كانت مجموعات قطع الطريق تتأهب لصد الرتل المتوجه لمآزرة الإسكان، وكانت ثلاث مجموعات؛ كل مجموعة لها قائد، وقدر الله أن يكون في مقدمة الرتل مجموعة من دبابات تي ٨٢ التي يصعب تفجيرها بالأجهزة اللا سلكية، وفعلًا حالت موجات الدبابات دون انفجار الألغام المزروعة، وأطلقت نيرانها على المجاهدين، واشتبكت مجموعات قطع الطريق مع القوة المكونة من ثلاثين آلية للجيش النصيري، فقتلوا منهم وأثخنوا، إلا أن مقتل القادة الثلاثة وانسحاب أبي أسامة الأمريكي بثلة من المقاتلين، بحجة أنهم لم يكملوا تدريبهم: كان سببًا في تخبط المجاهدين وعدم معرفتهم بما يحسن فعله،

فأصيب ما يقارب الستة وثلاثين مجاهدًا، ثم انسحبوا ليدخل الرتل إلى الإسكان ويتحصن فيه.

وينسحب المجاهدون من حول الإسكان، متفقدين شهداءهم وجرحاهم، سائلين عمن فقد منهم، ويأتي الخبر على جهاز الإرسال أن المقدسي والبنشي قد استشهدا في المعركة.

يقول أبو البراء المقدسي: مع دخول الظهر؛ اقتحمت قطعان النظام الإسكان، وكنت متمددًا بجانب أبي البراء البنشي، فلما دخلوا أكثرت من تلاوة آية: (**وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون**)، ويعلم الله أن بيننا وبين أحدهم حينما كانوا يدخلون أقل من مائة متر، إلا أن الله أعمى أبصارهم عنا حتى جاء المساء وسكن المعسكر، فإذا بالإخوة قد أتوا ليستردوا جثامين المجاهدين الذين ارتقوا في المعركة، ووجدونا بفضل الله فأسعفونا بعد مضي ست ساعات على إصابتنا.

(راجع بيان جبهة النصرة ٢٢٩).

خاتمة:

إن المطلع على سبب هزيمة المسلمين في بداية غزوة حنين، والمقتلة التي وقعت بهم في بلاط الشهداء، وانكسار أجناد النصرة بعد أن فتح الله عليهم في معركة الإسكان؛ لَيعلم أنما أصابهم موعظة لهم، وعبرة لغيرهم؛ حتى لا يغتروا بأنفسهم، فنصر الله لا يؤتى إلا لمن توكل على الله وحده، ولم يشرك معه أحدًا في توكله، وتأدب مع ربه في اعتقاده أن النصر لا يأتي إلا مِن عنده.

فيا أجناد دولة الخلافة الإسلامية؛ إياكم وأن يتسرب العجب إلى صدر أحدكم، فإن نصر الله لم يأتِكم بقوتكم وعددكم وعدتكم، إنه لم يأتكم بصالح عملكم، إنما هو محض منّة مِن ربكم، ونعمة أنعمها عليكم، وإنما تُحفَظ النعم بشكرها، فاشكروا الله كثيرًا على ما تفضل به عليكم، فتذكروا مَن تفضل عليكم في وقت ضعفكم وقلّة حيلتكم، واشكروا نعمته عليكم يوم أصبحتم بفضله أعزة كثرًا.

وهذه وصية ابن القيم نرسلها لكم: فوضوا الأمر إلى الله عز وجل، وأعلنوا عجزكم، فإن أقرب العباد مِن الله: الذين يعلنون الانكسار بين يديه.

فأقرب العباد إلى الله أشدهم انكسارًا إليه، وأقربهم إلى النصر أشدهم تواضعًا لله، وكلما ذل العبد وتواضع لله: رفعه الله، وكلما تكبر: **قال الله**: اخسأ فلن تعدو قدرك، وعزتي وجلالي لا أرفعك أبدًا.

واعلموا أن يوم حنين وما شابهه؛ لَهو درس للمسلمين في العقيدة: أن القوة مِن عنده تبارك وتعالى، وأنه هو الذي يهدي وينصر ويسدد، فلا قوة تأتي من غيره، ولا عزة إلا به.

هذا والله أعلم وأحكم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.